ثراء اللغة العربية وأثره في الإبداع (دراسة تطبيقية على المفردة القرآنية)

الباحث: سليمان بن علي بن عامر الشعيلي

ملخص

اللغة العربية لغة ثرية بمفرداتها، غنية في معانيها ودلالاتها، ذلك أن الكلمة العربية الواحدة قد تعطي معان متعددة وهو ما يسمي بالمشترك . ومن جهة أخرى فإن المعنى الواحد قد تستعمل له أكثر من مفردة واحدة، وهو ما يعرف بالترادف. وكلا الأمرين الترادف والمشترك أمارة على خصوبة اللغة وثرائها. وثراء العربية لا يقتصر على هذين الأمرين فقط، فقدرتها المتجددة على توليد الألفاظ، وسعتها في استيعاب مستجدات العصور، شاهد حي على إبداعها وتألقها وريادتها.

هذا وعلى الرغم من هذه السعة وهذا الثراء، فإن اللغة العربية من الدقة بمكان، بحيث لا يمكن أن تستعمل الألفاظ في غير موقعها الصحيح اللائق، إذ الكلمة هي أصل الدقة في التعبير، والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة، ولأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصلى دلت على المعنى كله، فإذا حشرت حشرا أو قسرت قسرا دلت على بعض المعنى أو ألجأت إلى غيرة".

ويبدع الكاتبون في اختيارهم للكلمة ، وكما قيل فإن الكلمة كالقطعة في الآلة لا تعمل إلا إذا وضعت في مكانها.

وللكلمة مكانتها عند العرب ، لذا فهم ينتقدون الشاعر أو الأديب، إن أساء في اختيارها. فقد وروي أن طرفة بين العبد انتقد وهو صبي صغير المسيب بن علس، قوله

وقد أتناسى الهم عند ادكاره **** بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال طرفة بعد سماعه البيت استنوق الجمل، ذلك أن الصيعرية سمة للناقة لا للبعير.

ومثل هذا كثير في كتب الأدب وأخبار الأدباء، وهذه الورقة تلقي الضوء على أهمية المفردة العربية، في اختيارها أولا، وفي تركيبها ثانيا، ثم تفرد المفردة القرآنية ببعض الأمثلة والتطبيقات. وقد قسمتها كما يلي:

تمهيد:

المبحث الأول: خصائص اللغة العربية

المبحث الثاني: المفردة في اللغة.

المبحث الثالث: المفردة في القرآن الكريم

المبحث الرابع: الترادف في اللغة ، وفي القرآن الكريم

المبحث الخامس: المشترك في اللغة وفي القرآن الكريم

الخلاصة

عسى أن يجد القارئ فيه شيئا ينتفع به، والله الموفق للخير، وهو يهدي السبيل

تمهيد:

اللغة قديمة قدم الإنسان، والأصل في تشعبها تشعب الجماعات، واختلاف اللغة "عمل صناعي تكيفه حالة الاجتماع كما تكيف سائر الأحوال من العادات وأمثالها، ولهذا كانت حقيقة معنى اللغة أنها مجموع العادات الخاصة بطائفة من طوائف الاجتماع"[1]

هذا وتختلف اللغات باختلاف المجتمعات البشرية، "ولا يمكن القطع بأن أصل اللغات كلها لغة واحدة، إلا إذا نهض الدليل على أن النوع الإنساني في أول وجوده لم يكن إلا جماعة واحدة، أو كان جماعات مختلفة ولكنها تتفق في حالة جامدة من أحوال الحياة الاجتماعية.. وهذا بعيد عن اليقين" [2]

ويرد العلماء اللغات إلى ثلاثة أصول: الأصل الآري، والسامي، والطوراني

ويردون اللغات السامية كلها إلى ثلاثة أصول : الآرامية، والعبرانية، والعربية، كما يردون اللغات الآرية إلى ثلاثة أصول: اللاتينية، واليونانية، السنسكريتية.

---

[1] االرافعي، تاريخ آداب العرب، 1: 65

[2] المصدر نفسه 1: 65

ويشير الرافعي أن أصل العربية لا بد أن يكون من الحبشية والحميرية، ثم من اللغات السامية الأخرى، لأن العرب قوم رحل ، وقد اختلطوا بأمم كثيرة، فلا بد أن يكون أثر هذا الاختلاط بينا في تكوين لغتهم، وتلك سنة عامة في اللغات كلها" ، ويرى البعض أن العربية أصلها إسماعيل علية السلام،وكان مسكنه مكة"[3]

ولا شك أن اختلاف العرب إلى مكة؛ كونها حرم مقدس منذ عهد إبراهيم، وفيها بيت الله الذي تعظمه العرب جميعا، كل هذا كان له أثر ظاهر في نضج لغة المكيين وارتفاعها على غيرها من لغات القبائل الأخرى، إذ كان القرشيون "يسمعون لغات العرب ويأخذون ما استحسنوه، فيديرون به ألسنتهم، ويجرون على قياسه، فارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات وستقبحها، وبذلك مرنوا على الانتقاد، حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس.." [4]

وإذا الأمر كذلك، فإنه من المناسب أن نقدم ببعض الخصائص التي تميزت به لغة العرب، ليكون مدخلا إلى الحديث عن خصائص المفردة في اللغة العربية بعد ذلك.

المبحث الأول: خصائص العربية

يؤكد المعنيون بدراسة اللغة العربية ما تختص به هذه اللغة من ثراء وسعة ، ومن دقة وإحكام ، وعذوبة وبيان، يقول الرافعي :

"ومن يتتبع تراكيب هذه اللغة ويتدبر أثر الأسباب اللسانية فيها، لا يجد كلاما يعدل كلام العرب في العذوبة والبيان، وفي الاختصار ونهج التأليف بين حروف الكلمة الواحدة، وحتى إنهم قد يراعون مواضع الحروف من معانيها، فيجعلون الحرف الأضعف فيها ، والألين والأخفى والأسهل والأهمس، لما هو أدنى وأقل وأخفى عملا وصوتا ، ويجعلون الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر ، لما هو أقوى عملا وأعظم حسا..أم صيغ كلامهم فهي بذلك أبدع الصيغ وأسلها، لما نحوه في استعمالها من التخفيف، وما طلبوه في صوغها من الاختصار، وأكثر الصيغ المهملة في العربية تجدها مستعملة في العبرانية والسريانية أو في أحداهما دون الاخرى ، مما يدل على أن هذه اللغة خلق لساني حي.." [5]

---

[3] انظر المصدر نفسه، 1: 80- 88

[4] المصدر نفسه، 1: 94

[5] الرافعي، تاريخ أداب العرب، 1: 107-108

يلخص لنا الدكتور فضل عباس خصائص اللغة العربية في مكوناتها الثلاث الحروف والكلمات والتراكيب كما يلي: [6]

أولا خصائص الحروف:

أن مخارج الحروف تمتد من الشفتين إلى الجوف، وليس ثمة موضع بين هذين إلا وتجد أن حرفا أو أحرفا تخرج منه، وقلما تجد في لغة من اللغات هذه السعة في المخارج.، وليست السعة وحدها هي التي تميز العربية، بل أيضا توزع هذه المخارج على أمكنة متعددة، كالحلق وفيه ثلاثة مخارج واللسان وفيه عشرة مخارج.

وميزة أخرى للحرف العربي بالإضافة إلى المكان، هي ثبات هذه الحروف من حيث النطق على اختلاف الأزمنة، فالحروف التي كان ينطقها العربي القديم هي نفسها التي ننطقها اليوم ، ولم يتغير النطق بها.

وأيضا فإن ما يميز العربية أن لكل حرف من حروفها معنى تلمحه منه، فالراء تشير إلى التكرار، والقاف إلى القوة، والدال للشدة، وهكذا

ثانيا: خصائص الكلمات

من خصائص الكلمات العربية:

إن أكثر هذه الكلمات ذات أصول ثلاثية مما يجعل النطق بها سهلا ميسرا، ويزيدها إعجابا وحلاوة أن هذه الأصول لا بد أن تكون حروفها منسجما بعضها مع بعض.

وتختص هذه الأصول أن بينيها صلات وثيقة ، وهو ما يسمى بالاشتقاق، سواء في تصرف الكلمة الواحدة إلى أبنية كثيرة وصيغ متعددة، أو ما يكون بين الأحرف ذاتها في الكلمة الواحدة من صلة كما في كلمة (سفر) ، فالسفر للكتاب الذي يكشف للإنسان عما فيه من علم، والسفر الذي يكشف للإنسان كثيرا من المجاهيل، والفسر ويعني كذلك الكشف.

أما صيغة الكلمة فلا تقل وظيفتها عما سبق ، كصيغة اسم الفاعل، واسم المفعول، وأسماء الزمان والمكان، الخ، فإنه يكفي الإنسان أن يعرف صيغة معينة لشيء معين ، ليقيس عليها غيرها مما لا يعرف.

ومن خصائص الكلمات العربية أيضا تقارب المعاني لتقارب الألفاظ، كالهز، والأز، كما في قوله تعالى (الم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) مريم: 83، وقوله (وهزي إليك بجذع النخلة) مريم: 25، فلما تقارب الحرفان (الهمزة، والهاء) تقارب معناهما وإن كان الأز أقوى من الهز، إذ الهاء مهموسة ، والهمزة مجهورة.

[6] انظر فضل عباس ، البلاغة المفترى عليها ، بين الأصالة والتبعية، ص 21-37 بتصرف

ومن خصائصها أيضا التقارب بين المعاني والأصوات، فإنك تجدهم كثيرا ما يصنعون اللفظ لما يقارب صوته من الحدث، فإذا كان الحدث قويا، اختاروا له الحرف القوي، وإذا كان ضعيفا ، اختاروا له الحرف الضعيف، من ذلك الخذف والقذف، والقضم والخضم، والنضخ والنضح..

أما خصائصها المعنوية:

فأولها السعة والشمول: فلا تكاد تجد من المعاني الإنسانية ، وما يتصل به من الدين والفلسفة والعلوم، إلا وتجده ظاهرا في هذه اللغة

يقول ابن الأثير: أما السعة فالأمر فيها واضح. ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الأسماء للمسمى الواحد. على أن اللغة الرومية بالضد فإن الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً. وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف والأسد في لغة العرب فكانت أورقاً عدة. وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني وفي النقل إليها يبين ذلك"[7].

وهي تجمع إلى هذه السعة الدقة والإحكام ، فإننا لا نكاد نجد جزئية في الإنسان أو الحيوان حتى الجماد، إلا وقد تكفلت اللغة بوضع يدل عليها، مما لا نجده في أكثر اللغات قديما وحديثا.

يقول الرافعي: "والعربية تعتبر أحكم اللغات نظاما في أوضاع المعاني، وسياستها بالألفاظ، وهي من هذا القبيل أعظمها ثروة، وأبلغها من حقيقة التمدن، بحيث لا يدانيها في ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت، فالعرب لم يدعوا معنى من المعاني الطبيعية التي تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم ، إلا رتبوا أجزاءه، وأبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة ، تعين تلك الأجزاء، والصفات على مقاديرها، فأول معاني الحياة الروحية الحب، وهذه مراتبه عندهم، الهوى ، ثم العلاقة، وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف، وهو شدة الحب، ثم العشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، ثم الشغف، وهو إحراق الحب للقلب، مع لذة يجدها، وكذلك اللوعة واللاعج، فأن تلك حرقة الهوى ، وهو هو الهوى المحرق، ثم الشغف، وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه، ثم الجوى ، وهو الهوى الباطن، ثن التيم ، وهو أن يستعبده الحب، ثم التبل، وهو أن يسقمه الهوى، ثم التدليه، وهو ذهاب العقل من الهوى ، ثم الهيوم، وهو أن يذهب على وجهه لا يستقر، وذلك لغلبة الهوى عليه، ومن رجل هائم.

---

[7] ابن الأثير ، المثل السائر،1: 43-44

وكذلك فعلوا في معاني السرور والعداوة والغضب، والحزن والسرعة وغيرها، ، ومن معاني الحياة البدنية أصول المعاش الطبيعية التي هي قوام أمرهم ، كاللبن ، فإن له نحو سبعين اسما باعتبار اختلاف أحواله....."[8]

المبحث الثاني: المفردة في اللغة

المفردة: تعني الاسم وتعني الفعل حين يرتبط الفعل بعامل زمني معين

"ويمكن القول أن المفردة هي المجموعة الصوتية التي تدل على معنى ، وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأولي في بناء النظم، والوحدة المكونة له، فلا يغنى أحدهما عن الآخر".[9]

وليست المفردات كلها في درجة واحدة في الفصاحة، فمنها الفصيح، ومنها غير ذلك، وينقل عبدالله الطيب عن حفني ناصف أن فصاحة الكلمات تكون بما يلي:

تكون الكلمة فصيحة إذا سلمت من الغرابة، ومن تنافر الحروف ، ومثلوا للغرابة بنحو جحمرش، وللتنافر بنحو النقاخ، والهمخع، ونظم هذه القاعدة صفي الدين الحلي، في أبيات مشهورة، منها قوله:

إنما الحيزبون والدردبيس **** والطخا والنقاخ والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها **** حين تروى وتشمئز النفوس.

ويكون الكلام فصيحا إذا خلا من تنافر الكلمات ، والتعقيد اللفظي، والتعقيد المعنوي، وضعف التأليف، فمثال التنافر قول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر **** وليس قرب قبر حرب قبر

ومثال التعقيد: قول أبي الطيب من كلمته "لك يا منازل":

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم *** شيم على الحسب الأغر دلائل

ومثال التعقيد المعنوي، قول الآخر:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا *** وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فمراده من الجمود غامض

وقو الطائي:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه *** بكفيه ما ماريت في أنه برد

وهذا مما عابه الآمدي ، وزعم أنه خارج من مذهب العرب في نعت الحلم.

---

[8] الرافعي، تاريخ آداب العرب، 1: 227-228

[9] ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، ص20

ومثال ضعف التأليف قول ا لآخر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر *** وحسن فعل كما يجزى سنمار

ولا يترتب على فصاحة الكلمات كون الكلام فصيحا، مثال ذلك بيت مسلم المشهور:

سلت وسلت ثم سل سليلها *** فغدا سليل سليلها مسلولا

فكلماته إن أفردته فصيحة، وهي معا أبعد شيء عن الفصاحة لمكان التنافر بينها، كما زعموا، ومثل قول الطائي:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى *** معى وإذا ما لمته لمته وحدي

فقد كرهوا توالي الحلقيين في (أمدحه أمدحه)[10]

واختلف أهل العربية في حسن اللفظة وقبحها، هل هو لذاتها، أم ناتج عن استعمالها في تراكيب مختلفة، فممن ذهب إلى الأول ابن الأثير في المثل السائر، وذهب إلى الثاني، عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز[11]، يقول عبدالله الطيب "وابن الأثير على سطحيته لم يكن مخطئا كل الخطأ حين زعم أن الكلمات تنقسم إلى حسن وقبيح بطبيعتها، إذ أحكام البيئة والمزاج، و "المودات" تلون كثيرا من كلمات اللغة بألوان الحسن والقبح، لا يستطيع المرء أن يصرف ذهنه عنها، وخطأ ابن الأثير الأساسي في أنه لم ينتبه إلى أن هذه القسمة منشؤها ظروف الحياة الطارئة، واستعمال الناس الخاضع لقوانين التغيير، لا نفس طبيعة اللغة من حيث مخارجها.. ومذهب الجرجاني: في أن الألفاظ في ذواتها مجردة من الحسن والقبح، حتى تحسنها التراكيب أو تقبحها، على عمقه ومتانته، مبني على تناسي العنصر البشري.، ولو كان الناس كلهم يفكرون تفكيرا علميا موضوعيا لحق عليهم أن يتقيدوا بقواعد عبد القاهر في حكمهم على الأساليب الأدبية، ولكانت هذه القواعد نهاية الجودة والدقة، ولكن الناس يحسنون ويقبحون وستهجنون ويستملحون، بحسب أمزجتهم ، وبيئتهم، و "مودتهم" ،وما أكثر ما يقسمون الموسوعة اللغوية بأجمعها إلى حسن وقبيح، قبل أن تنتظمها التراكيب، متأثرين بظروف حياتهم، وأذواق عصورهم..

والحق أنه لا مذهب الجرجاني ، ولا مذهب ابن الأثير يصلح أساسا لأن تقاس به ملاحة الألفاظ أو سماجتها، وما تمتاز به قوة جرسها أو ضعفه... وعندي أن أفضل ما يعتمد عليه الناقد في هذا الباب هو القاعدة القديمة "البلاغة الإيجاز"... وحد الإيجاز أن يكون اللفظ متقصدا فيه اقتصادا لا يخل بالغرض ولا تنفعه الزيادة"[12]

---

[10] عبدالله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، 2/ 17-18

[11] أنظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 43-48

[12] عبدالله الطيب، المرشد، 38-40

غير أنه مما يجب التنبيه إليه أن عبد القاهر لا ينفي أن يكون للفظة المفردة حسن وبهاء، لكنها تبقى لفظة عادية من ألفاظ المعجم، ولا يظهر حسنها إلا في ضمها إلى غيرها حيث تشكل معا نسقا واحدا منسجما يؤدي المعنى المراد دون زيادة أو نقص[13]. فالمفردة الأدبية، كما قيل، "لا تقف في حياد المعجم، فإن غزت موضوعها واستوعبته تملكته، فكانت آية في الجمال، وإن خسرت معركتها اقتربت من الفوضى والهذيان، وصارت إلى زوال وابتذال، يقول بختين في هذا الصدد: "الكلمة في الفكر الأسلوبي التقليدي لا تعرف إلا ذاتها أي سياقها هي،وموضوعها هي، وتعبيريتها المباشرة، ولغتها الوحيدة، أما الكلمة الأخرى الموجودة خارج سياقها ، فلا تعرفها إلا بوصفها كلمة محايدة من كلمات اللغة ، إلا كلمة لا تخص أحدا، إلا مجرد إمكانية كلامية" [14]

ويؤكد الزيات هذا المعنى فيقول: "وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع وخلق، لأن الكلمة ميتة ما دامت في المعجم، فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها في التركيب، ووضعها موضعها الطبيعي من الجملة دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة"[15]

خلاصة القول: أن اختيار الألفاظ مهم في بلاغة التعبير عن المعنى ، والأهم منه هو حسن التركيب، أي نظمها مع أخواتها في سلك واحد، فبه يظهر حسن الكلام أو رداءته، ويعرف الكلام البليغ من غيره، ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره ابن الأثير في المثل السائر، من أبيات الحماسة قول الأعرج:

نحن بنو الموت إذا الموت نزل **** لا عار بالموت إذا حم الأجل

الموت أحلى عندنا من العسل

وقول أبي الطيب المتنبي:

إذا بي مشت خفت على كل سابح **** رجال كأن الموت في فمها شهد

يقول ابن الأثير:

"فهاتان لفظتان (الشهد) و (العسل) وكلاهم حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله، وقد وردت لفظة العسل في القرآن دون لفظة الشهد، لأنها أحسن منها، ومع هذا فإن لفظة (الشهد) وردت في بيت أبي الطيب، فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج.

وفي القرآن الكريم، كما يذكر ابن الأثير ، شيء من هذا ، ومثل له بقوله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) الأحزاب: 4، وقوله تعالى (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا)

---

[13] انظر، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، 43-44

[14] احمد ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، ص26

[15] الزيات، دفاع عن البلاغة، ص 82

آل عمران: 35، فاستعمل (الجوف) في الأولى , و (البطن) في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد، فانظر إلى السبك كيف يفعل.

ومما يجرى هذا المجري، قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) النجم: 17، وقوله (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)، ق: 35، فالقلب ، والفؤاد ، سواء في الدلالة وإن اختلفا في الوزن، ولم يستعمل في القرآن أحداهما في موضع الآخر..."[16]

المبحث الثالث: المفردة القرآنية

المفردة القرآنية مختارة منتقاة، لا يحل غيرها محلها، فهي كما يقول الباقلاني: "كل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ معناه" ص 99 وقد نقل عن ابن عطية ، أنك لو أخذت لفظة من مكانها ثم أدير لسان العرب، لم يوجد لفظة أحسن منها، او تسد مسدها، ولا شك أن في المفردة القرآنية ، كما في القرآن جميعه فيض من روح الله ، يقول عبد الكريم الخطيب: " أفاض الله سبحانه عليها– الكلمات– هذا الفيض، ونفخ فيها من روحه، كما نفخ في عصا موسى ، لكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس، كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك"[17]

ويعبر الباقلاني ، وهو من دارسي الإعجاز الأوائل، عن هذا بقوله: "هو أدق من السحر وأهول من البحر، وأعجب من الشعر، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع الصبح موضع "الفجر" يحسن في كل كلام، إلا إن يكون شعرا أو سجعا، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل قد تتمكن فيه" الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 184

وإعجاب العلماء بالمفردة القرآنية وحسن اختيارها يكاد لا ينتهي، ولعلنا نوضح ذلك بالأمثلة التالية:

أمثلة تطبيقية على المفردة القرآنية

1– في قوله (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) البقرة: 18

يذكر لنا الزمخشري سبب اختيار كلمة (بنورهم) بدلا من (بضوئهم) مع أن الثانية أكثر ملاءمة من حيث اللفظ، فيقول: "هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله (فلما أضاءت)، قلت: ذكر النور أبلغ،

---

[16] ابن الأثير، المثل السائر ، 1/ 164- 165

[17] عبد الكريم ا لخطيب، إعجاز القرآن الكريم في دراسات السابقين، 295/2

لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورا، والغرض إزالة النور عنهم رأسا وطمسه أصلا ألا ترى كيف ذكر عقيبه (وتركهم في ظلمات) والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها وكيف نكرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله (لا يبصرون). ويضيف الزمخشري أمرا آخر، هو استعمال الفعل (ذهب) بدلا من (أذهب) فقال: والفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهبا ويقال ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه وذهب السلطان بماله أخذه (فلما ذهبوا به)، (إذا لذهب كل إله بما خلق)، ومنه ذهبت به الخيلاء، والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له، فهو أبلغ من الإذهاب[18]. 1: 41

2- قوله تعالى (والذين هم للزكاة فاعلون) المؤمنون : 4

والسؤال هنا، لماذا استعمل كلمة (فاعلون) دون (مؤدون) مثلا؟، يجيب عن ذلك الخطابي بقوله: "وقولهم إن المستعمل في الزكاة المعروض لها من الألفاظ ، الأداء، والإيتاء، والإعطاء، ونحوها كقولك : أدى فلان زكاة ماله، وآتاها، وأزكى ماله، ولا يقال فعل فلان الزكاة،ولا يعرف ذلك في كلام أحد. فالجواب: أن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية، وإنما تفيد حصول الاسم فقط، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب، ومعنى الكلام ومؤداه المبالغة في أدائها، والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لا زمة لهم، فيصير أداء الزكاة فعلا لهم مضافا إليهم ، يعرفون به ، فهم له فاعلون"[19]

3- قوله تعالى: (وأصبح فواد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به) القصص: 10

انظر إلى استعمال كلمة (فارغا) في الآية، أليست توحي لك بذهاب عقلها كله مع ولدها، ولم يبق لها منه شيء صالح تنتفع به، وهكذا شأن الأم عند فراق ولدها، فكيف وهو في يد عدوه. ولم يفت الزمخشري هذه النكتة فقال في تفسيرها: "أي صفرا من العقل ، والمعنى أنها لما سمعت وقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله (والفئدتهم هواء)، (إن كادت لبتدي به) لتصرح بأمره وأنه ولدها... ويجوز وأصبح فؤادها فارغا من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه، إن كادت لتبدي به بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت لولا أن طمأنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح[20]. ونحن نرى أن كلمة فارغا تحمل معنى آخر، يكاد يكون معاكسا تماما للأول، أي فارغا من الهم، وكلا المعنيين لو فكرت فيه حسن جميل، فهل يمكن أن يوجد هذا في غير القرآن الكريم.

---

[18] الزمخشري، الكشاف، 1: 41

[19] الخطابي، رسالة في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص41

[20] الزمخشري، الكشاف، 4: 216

4- بقي أن نذكر لك أيها القاريء الكريم مثالا ليس على اختيار اللفظ من حيث معناه فحسب، وإنما من حيث حروفه، وخفة حركاته، فمثلا في قوله تعالى (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) ص: 36

لو تأملت في كلمة (رخاء) لوجدت جزئيات الحركة المعنية، وتصوير للحدث، وذلك بعيدا عن المعنى، فالصوت هو الذي يوحي الآن، ويرسم الحركة في عملية نطق تحاكي الحركة ، فإن الضمة على الراء تعني انضمام الشفتين على حرف ليس من حروف اللين ، واستدارة الشفتين تتطلب جهدا، وفي هذا قوة الريح، ثم يأتي الانتقال من الضم إلى الفتح على حرف حلقي ليدعو إلى تصور بدء السهولة ، وتكثر السهولة في مد الألف، فليس هناك انقباض ولا انكماش، بل تدرج من الصعب إلى السهل، مما يمثل طواعية الريح للنبي الخالق، ولا يكون هذا في كلمة سوى رخاء".[21]

والأمثلة على ذلك كثيرة، وإنما الغرض التمثيل للمفردة القرآنية في إعجازها، وثرائها، والإبداع الذي أودعه الله فيها، ننتقل بعد هذا جانب آخر من جوانب الإعجاز في اللفظة القرآنية وهو اختلاف الصيغة الصرفية.

الصيغة الصرفية في الأفعال

اختيار الصيغة الصرفية للكلمة القرآنية، يتضمن إعجازا ليس بأقل من اختيار الكلمة نفسها، فمثلا في قوله تعالى :(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) البقرة: 286، يفرق الزمخشري بين الفعلين (كسب) و (واكتسب)، ويرى في الثاني جهدا زائدا ليس في الأول فيقول: "لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وتنجذب إليه ، وإمارة به ، كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"[22] 1: 159

2- كما يفرق بين الفعل (أنزل) ، و (نزل) الوارد في قوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) البقرة: 23، فيرى في الثاني تدرجا وتنجيما لا يوجد في الأول، فيقول: "فإن قلت لم قيل (مما نزلنا) على لفظ التنزيل لا الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفا لما يكون عند الناس لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة...فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة... فقيل : إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجما

---

[21] ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، ص 32-33
[22] الزمخشري، الكشاف، 1: 159

واحدا من نجومه سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفتريات ، وهذه غاية التبكيت، ومنتهى إزاحة العلل"[23]

3- وليس الصيغة الصرفية وحدها موضع إعجاز في القرآن الكريم، وإنما الحالة الإعرابية أيضا، كما في قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير)الحج: 63 ، بعد أن يذكر الزمخشري سبب اختيار الفعل المضارع (فتصبح) بدلا من الماضي (فأصبحت)، وهو إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، يتساءل: لماذا رفع فتصبح، ولم ينصب؟ وأجاب: لأنه لو نصب لأعطى عكس المعنى، وهو نفي الاخضرار ،مثاله: الم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته فأنت ناف للشكر، وإن رفعته فأنت مثبت له.[24]

4- ومن الصيغ الصرفية أيضا تضعيف الفعل، كما في قوله تعالى (يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم) البقرة: 49، يقول احمد بدوي: "نجده قد اختار ذبَح مصورا به ما حدث، وضعفت عينه على كثرة ما حدث من القتل في بني إسرائيل يومئذ، ولا تجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون" [25]

5-وإذا خرجنا من المفردة إلى الجملة، فإننا نجد القرآن يستعمل في الحدث وجزاءه جملتين مختلفتين، كما في تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنما نحن مستهزؤون الله يستهزيء بهم) البقرة : 15.ففعل المنافقين استعمل له الجملة الاسمية (مستهزؤون) ، أما فعل الله بهم فاستعمل له الجملة الفعلية (يستهزيء)، وما ذاك إلا لنكتة بلاغية ذكرها الزمخشري فقال: "فإن قلت هلا قيل مستهزئ بهم ليكون طبقا لقوله (إنما نحن مستهزؤن) ، قلت: لأن يستهزئ بهم يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم"[26]

الحرف

لا يقتصر إعجاز القرآن الكريم في الكلمة بل الحرف كذلك فيه جانب من هذا الإعجاز، وكل ذلك دليل على سعة اللغة العربية وثرائها، أنها وسعت كتاب الله تعالى . وليس الهدف الاستقصاء ، وإنما نذكر بعض الأمثلة من الإعجاز في الحرف.

عند تفسير قوله تعالى (قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا) الشعراء: 185-186

---

[23] المصدر نفسه، 1: 50

[24] الزمخشري، الكشاف، 4: 90

[25] ياسوف، جمالة المفردة القرآنية، 251، نقلا عن احمد بدوي، من بلاغة القرآن،ص 85

[26] الزمخشري، الكشاف، 1: 37

يذكر الزمخشري في تفسيرها أن فائدة مجيء الواو بين الجملتين هو أنه قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية،... وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا، ثم قرر بكونه بشرا مثلهم.[27]

ومن الأمثلة أيضا على أثبات الحرف وحذفه قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ آل عمران 102-105

وقوله في سورة الشورى ينهى عن التفرق:

﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى 13

في أل عمران (تفرقوا) بحذف إحدى التائين، وفي الشورى (تتفرقوا). وهي لم تحذف من الثانية وتثبت في الأولى عبثا، ولكن ذلك قصدا، ذلك أن أية أل عمران خطاب للأمة الإسلامية، أما الشوري فالكلام فيها عن أمم مختلفة وشرائع متعددة، فلما كانت هذه في أمم متطاولة على مدى التاريخ جاء بالصيغة التي هي أطول، ولما كانت الأولى في أمة واحدة ، هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهي جزء من الأمم المذكورة في الشورى جاء بجزء من الفعل ولم يأت به كله.

وأيضا فإنه لما نهى الأمة الإسلامية عن أي شيء من التفرق مهما كان ضئيلا أو جزئيا وحذر من ذلك فقال (ولا تفرقوا) فاقتطع من الفعل للدلالة على النهي على أي شيء من التفرق مهما قل وضؤل.[28]

أما اختيار الحرف فمن الأمثلة عليه قوله تعالى: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) النمل: 7

قال الزمخشري في تفسيرها: "فإن قلت كيف جاء بسين التسويف؟ قلت : عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة، فإن قلت فلم جاء بأو دون الواو؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما"[29]

---

[27] الزمخشري، الكشاف، 4: 181
[28] فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة ، ص 15
[29] الزمخشري، الكشاف، 4: 190

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ الأحزاب

فالحكمة من مجيء الف الإطلاق في (الظنونا) ، هو أنهم ظنوا ظنونا كثيرة مختلفة فأطلقها في الصوت مناسبة لتعددها وإطلاقها.[30]

المبحث الرابع: الترادف

قال ابن منظور: "الردف ما تبع الشيء، وكل شيء تبع شيئا فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف.. وأردفه أمر لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه، وفي حديث بدر: "(فاستجاب لهم ربهم أن ممدكم بألف من الملائكة مردفين) الأنفال: 9، يعني متتابعين، يلحق بعضهم بعضا، ... وترادف الشيء تبع بعضه بعضا، والترادف التتابع.[31]

وفي الاصطلاح عرف ابن عاشور المترادف بقوله: "لفظ مفرد دال بالوضع على معنى قد دل عليه بالوضع لفظ آخر مفرد يخالفه في بعض حروفه الموضوع عليها، بحيث تنطق به قبائل العرب كلها إذا شاءت، أو ألفاظ مفردة كذلك بشرط استقلال تلك المفردات في الاستعمال والدلالة" [32]

ونقل السيوطي عن الإمام فخر الدين : ان المترادف: هو الألفاظ المفردة، الدالة على شيء واحد باعتبار واحد، قال واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد، فليسا مترادفين، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين، كالسيف والصارم، فإنهما دلا على شيء واحد ولكن باعتبارين، أحدهما على الذات، والأخر على الصفة، ....[33]

ويشير السيوطي إلى أن منشأ الترادف "إنما يكون من واضعين ، وهو الأكثر بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان، ويخفى الواضعان... وقال: إن الحاجة تدعو إلى تأكيد المعنى والتحريض والتقرير، فلو كرر اللفظ الواحد لسمج ومج،... فخالفوا بين الألفاظ والمعنى واحد".[34]

وذكر السيوطي: ان الفيروز آبادي صاحب القاموس ألف كتابا سماه الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف، وألف ابن خالويه كتاب في أسماء الأسد، وكتابا في أسماء الحية" ام مزهر، 1/ 406-407، ونقل عن ابن خالويه أنه جمع للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتان.[35]

---

[30] السامرائي ، يلاغة الكملمة ، ص 38
[31] ابن منظور ، لسان العرب، مادة ردف،
[32] المنجد، الترادف في القرآن الكريم، ص 33-34
[33] السيوطي، المزهر، 1: 403
[34] السيوطي، المزهر، 1: 37
[35] السيوطي، المزهر، 406-407

وأنكر الترادف قوم منهم ابن الأعرابي وثعلب وابن فارس وغيرهم ، قال ابن درستويه، "محال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد، كما يظن كثير من النحويين واللغويين، وإنما سمعوا العرب تكلم بذلك على طباعها، وما في نفوسها من معانيها المختلفة ، وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها ، ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق، فظنوا أنه بمعنى واحد، وتألوا على العرب هذا التأويل من عند أنفسهم، ... وليس يجيء شيء من هذا الباب إلا على لغتين متباينتين، أو على معنيين مختلفين"

ورده التاج السبكي، وقال: ذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف في اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات، فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات، كما في الإنسان والبشر، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان، أو باعتبار أنه يؤنس، والثاني باعتبار أنه بادي البشرة... وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب".[36]

وأيا كان فإن وجود عدة ألفاظ للمعنى الواحد، حتى لو كان ذلك باعتبارات مختلفة، فإن ذلك ولا شك أمارة على ثراء اللغة العربية، وجانب من جوانب إبداعها. قال ابن الأثير: "فأما السعة فالأمر فيها أيضا؛ واضح لأن الناظم أو الناثر إذا حظر عليه موضع إيراد لفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات ألفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى، أخذ ما يليق بالموضع من غير عنت ولا مشقة، وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الأسماء للمسمى الواحد، وتلك فائدة حاصلة بلا خلاف. على أنه ربما عرض في وضع الأسماء المشتركة فائدة في بعض المواضع مثل أن يحتاج الناطق إلى كلام يؤثر أن يكنى فيه ولا يصرح فيقول لفظة ويوهم بها معنى قد قصد غيره."[37]

وما قيل في الترادف في اللغة ينطبق على القرآن الكريم، غير أن المحققين من أهل العربية، والتفسير، يرون أن الكلمات القرآنية لا ترادف فيها، وإنما كل لفظ من ألفاظ القرآن، يشي بمعنى لا يوجد في مرادفه، يقول الجاحظ : "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في مواضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث"[38]

---

[36] انظر السيوطي، المزهر، 1: 384-403
[37] ابن الأثير ، المثل السائر،1: 45-46
[38] الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 12

ومن الأمثلة على الألفاظ التي توهم الترادف:

ورد في آيات القرآن الكريم لفظ (الأب) في آيات عدة منها قوله تعالى(إذ قال يوسف لأبيه) يوسف: 4 ، وقوله (ملة أبيكم إبراهيم) الحج: 8 ، وقوله: (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) الصافات: 126، ولفظ (الوالد)، في قوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) البقرة: 82،(واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) لقمان: 23، المنجد: 14.

وقالوا في الفرق بينهما أن لفظ (الأب) يستخدم للأب المباشر، كما هو في آية يوسف: 4، كما يستخدم للأجداد، كما هو في الآيتين، الأخريين.

كما أن في الأب معنى الإرشاد والرعاية العقلية، والتعليم، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) يوسف: 98، وقوله (قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) البقرة: 170، وكذلك في قوله (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) الشعراء: 74، وقوله (ما كان أبوك امرؤ سوء) مريم: 28[39]

أما لفظ الوالد، فإنه يعني الأب المباشر خاصة، ولم يرد في القرآن بمعنى الجد، كقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) البقرة: 82، وأكثر ما يكون فيما بشيء بالرابطة العاطفية بين الوالد والولد كما في قوله (وبرا بوالديه) مريم: 14.

ومن الأمثلة على ما قيل أنه مترادف، الخوف والخشية:

كما في قوله تعالى (يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) ، والفرق بينهما–كما قيل– أن الخشية خوف يشوبه تعظيم، وتكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قويا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرا يسيرا، ويدل على ذلك أن (الخاء ، والشين، والياء) في تقاليبها تدل على العظمة، نحو شيخ: للسيد الكبير، وخيش: لما غلظ من اللباس، ولذا وردت الخشية غالبا في حق الله (وإن منها لما يهبط من خشية الله) البقرة: 74، (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، فاطر: 28،

وزاد السيد رشيد رضا فرقا آخر فقال "إن كان بين الخوف والخشية فرق فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف في محل الأمل، ومن دقق النظر في الآيات التي ورد فيها حرف الخشية يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية مادة : خشت النخلة تخشو، إذا جاء ثمرها دقلا، وهي مما يرجى منها الجيد" [40]

---

[39] الراغب الأصفهاني، ص 57

[40] فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 176

المبحث الخامس: المشترك

قال السيوطي: "حده أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"[41]

واختلف الناس فيه اختلافا كثيرا ، فالأكثرون على أنه ممكن الوقوع، لجواز أن يقع إما من واضعين، بأن يضع احدهما لفظا لمعنى، ثم يضمه الآخر لمعنى آخر، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين، ... وإما من واضع واحد لغرض الإبهام على السامع ، حيث يكون التصريح سببا لمفسدة، كما روي عن أبي بكر الصديق، وقد سأله رجل عن النبي صلى الله عليه وسلم: هذا رجل يهديني السبيل.

قال الأصمعي في كتاب الأجناس: العين النقد من الدراهم والدنانير ليس بعرض، والعين: مطر أيام لا يقلع، يقال أصاب أرض بين فلان عين، والعين: عين الإنسان التي ينظر بها، والعين: عين البئر، وهو مخرج مائها، والعين: القناة التي تعمل حتى يظهر ماؤها ، والعين: الفوارة التي تفور من غير عمل، والعين: ما عن يمين القبلة قبلة أهل العراق، ويقال : نشأت السماء من العين، والعين عين الميزان وهو ألا يستوي، والعين: عين الدابة والرجل وهو الرجل نفسه، أو الدابة نفسها، أو المتاع نفسه، يقال: لا أقبل من إلا درهما بعينه، أي لا أقبل بدلا، وهو من قول العرب: لا اتبع أثرا بعد عين، : عين الجيش الذي ينظر لهم، والعين : عين الركبة، وهي النقرة التي عن يمين الرضفة وشمالها، وهي المشاشة التي على رأس الركبة، والعين: عين النفس أن يعين الرجل الرجل ينظر إليه فيصيبه بعين، والعين: السحابة التي تنشأ من القبلة ، قبلة أهل العراق، والعين : عين اللصوص. انتهي"... وأنشد سلامة بن الأنباري في شرح المقامات:

لقد رأيت هذريا جلْسا *** يقود من بطن قديد جلْسا

ثم رقى من بعد ذاك جلْسا *** يشرب فيه لبنا وجلْسا

مع رفقة لا يشربون جلْسا *** ولا يؤمون لهمٍ جلْسا

جلْس الأول :رجل طويل، والثاني: جمل، والثالث: جبل عال، والرابع عسل، والخامس: خمر، والسادس: نجد . وذكر السيوطي من المشترك أيضا، الخال، والجلْس، والهامة وغيرها من الألفاظ[42]

ومن الأمثلة على المشترك في القرآن الكريم لفظ (أمة)، ذكر أهل اللغة أن لها ثمانية معان[43]:

---

[41] السيوطي، المزهر، 1: 369

[42] انظر السيوطي، المزهر، 1: 369-376

[43] انظر، مكرم، المشترك في الحقل القرآني، 102

الأول: تعني عصبة ، كما في قوله تعالى (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) البقرة: 128، يعنى عصبة مسلمة.، وكما في قوله تعالى (منهم أمة مقتصدة) المائدة: 66 وكذلك قوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) الأعراف: 159

الثاني: يعنى ملة، كما في قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة) ، أي كانوا على ملة الإسلام على عهد آدم وأهل سفينة نوح عليه السلام. ومنه أيضا قوله تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) أي ملتكم، ملة الإسلام، وقوله ((ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعنى ملة الإسلام وحدها.

الثالث: أمة يعنى سنين ، في قوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) هود: 8، وفي سورة يوسف (وادكر بعد أمة) يوسف: 54

الرابع: أمة بمعنى قوم، في قوله تعالى (أن تكون أمة هي أربي من أمة) معناه ، أن يكون قوم أكرم من قوم.

الخامس: أمة يعنى إمام، وذلك في قوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة) النحل: 120، يعنى إماما يقتدى به في الخير.

السادس: أمة تعني الأمم الخالية وغيرهم من الكفار، ومثاله قوله تعالى (ولكل أمة رسول) يونس: 47، وقوله في الحجر، (ما تسبق من أمة أجلها) الحجر: 5

السابع : أمة محمد صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) آل عمران: 110

الثامن: الكفار من أمة محمد خاصة ، في قوله تعالى (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم)، الرعد: 20

ولئن قلنا أن بعض هذه المعاني متداخلة ، لكننا نستطيع القول أن لفظ (أمة) يشترك في أكثر من معنى، ورغم وجود مثل هذا النوع في لغات أخرى، إلا أن تتسم بالدقة والسعة قل نظيره في غيرها من اللغات.

الخاتمة

يمكن أن نلخص ما ورد في هذه الورقة كما يلي:

1. اللغة العربية هي خلاصة اللغات السامية، وأصفاها، وقد حفظها الله تعالى بالقرآن الكريم.
2. تختص اللغة العربية عن غيرها من اللغات بعدد من الخصائص، في حروفها، وكلماتها، ومخارجها، وجرسها، إلى غير ذلك من الخصائص التي قلما توجد في غيرها.
3. اللغة العربية ثابتة في أصولها وإن تطورت بعض ألفاظها ومعانيها، وهذه ركيزة هامة من ركائز الإبداع، إذ يستطيع العربي أن يقرأ تراث الماضي، ويفهمه، كما يقرأ تراث الحاضر.

4. اللغة العربية غنية بألفاظها، ولعل الترادف والمشترك من الأدلة على ثرائها وسعتها.

5. تتسم اللغة العربية بالدقة في المعنى وإن اتسعت الألفاظ.

6. المفردة القرآنية منتقاة ولا يمكن أن يحل غيرها محلها.

7. لا يوجد في القرآن الكريم ترادف، وإن وجد في أدب اللغة شعرا ونثرا، أما المشترك فموجود ظاهر.

المراجع:

1. ابن الاثير، ضياء الدين، المثل السائر، علق عليه: احمد الحوفي، وبدوي طبانه، دار نهضة مصر، القاهر ة
2. الاصفاني، الراغب، المفردات، ت: صفوان داوودي، ط1، دار القلم ، بيروت 1992م.
3. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت: أحمد محمد شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، ه1410/ 1989م
4. الخطيب، عبد الكريم، إعجاز القرآن الكريم ، ط1، دار الفكر العربي بمصر
5. الخفاجي، عبدالله بن أحمد بن سنان، سر الفصاحة، مكتبة المشكاة الإسلامية، نسخة الكترونية
6. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ط6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1422ه/2001م
7. الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، تحقيق: محمد مرسى عامر، دار المصحف، القاهرة.
8. الزيات، احمد ، حسن دفاع عن البلاغة، ط1، مطبعة الرسالة ، القاهرة.
9. السامرائي، فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ط2، دار عمار، 1422/ 2001
10. السيوطي: جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، . محمد جاد المولى وأخرون، دار إحياء الكتب العربية، عيسى بابي الحلبي، القاهرة.
11. الطيب عبدالله، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الآثار الإسلامية، الكويت
12. عباس، فضل حسن، البلاغة المفترى عليها ، بين الأصالة والمعاصرة، ط1، دار النور للطباعة والنشر، بيروت، 1989/1410
13. عباس، فضل حسن، وسناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، عمان، 1991م

14. مكرم ، عبد العال سالم، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996/1417
15. منجد، محمد نور الدين، الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1422/ 2001
16. ياسوف،أحمد، جمالية المفردة، إشراف وتقديم نور الدين عتر، ط1، دار المكتبي، دمشق، 1994/1415